

الإسهامات الاجتماعية لرجال التصوف في العهد الزياني

دراسة تاريخية أنثروبولوجية

The social contributions of the Sufis in the Zayani era
Anthropological historical study

مشراوي ابراهيم^{*1}

¹ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

brahimmechraoui2@gmail.com

مطهري فطيمة²

² جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

bentalhafatima@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/07/04 تاريخ القبول: 2020/08/05

ملخص:

عرف العهد الزياني في الفترة الوسيطة بروز العديد من رجال التصوف على الساحة الفكرية، والذين عرفوا بتكوينهم الديني ومستواهم الثقافي وكان لهم حضور فعال وإسهامات اجتماعية كثيرة، وبحكم أنهم جزء لا يتجزأ من نسيج هذا المجتمع فقد سعوا إلى معالجة وحل العديد من المشاكل الاجتماعية التي كانت تواجه الناس وصاروا يمثلون لهم البديل الذي لا يمكن الإستغناء عنه عند غياب دور السلطة في كثير من الأحيان، ويجاول هذا البحث قراءة تلك العلاقة بين المجتمع وهذه الفئة قراءة تاريخية أنثروبولوجية لرسم ملامح العلاقة التي ربطت رجال التصوف بأفراد مجتمعهم وإبراز الدور الاجتماعي الفعال الذي لعبته هذه الفئة المكونة لمجتمع المغرب الأوسط في تلك الفترة.

فكيف كانت مشاركة المتصوفة في المجال الاجتماعي، وما هو الدور الذي لعبوه لحل مشاكل مجتمعاتهم، وهل

غطت حياتهم الروحية على علاقاتهم الاجتماعية؟

الكلمات الدالة: المتصوفة؛ الإسهامات الاجتماعية، العهد الزياني؛ المغرب الأوسط؛ قراءة أنثروبولوجية.

Abstract:

The Zayani era knew in the intermediate period the emergence of many men of Sufism on the intellectual scene, who were known for their religious composition and cultural level and had an effective presence and many social

^{*} المؤلف المرسل: مشراوي ابراهيم، الايميل: brahimmechraoui2@gmail.com

contributions, and by virtue of being an integral part of the fabric of this society, they sought to address and solve many social problems that were facing People have come to represent them as an irreplaceable alternative in the absence of the role of power often, and this research attempts to read that relationship between society and this group an anthropological historical reading to draw the features of the relationship that linked the men of Sufism with the members of their society and highlight the effective social role that this component group played To the society of middle maghreb at that time.

How was the Sufis's participation in the social field, and what role did they play to solve the problems of their societies, and did their spiritual life cover their social relations?

Keywords: Mysticism; Social contributions, Al-Zayani era; Middle maghreb; Anthropological reading.

مقدمة:

إن الأزمات الاجتماعية التي كان يمر بها المجتمع الزياني دفع بالسلطة إلى إيجاد حلول لها، وقد تمثلت بعض تلك الحلول في تبنيها للتيار الصوفي وإفساح المجال له لأداء دوره في المجتمع، وبذلك غدا هو التيار الأكثر هيمنة على الحياة العامة والأقرب إلى أوساط المجتمع، فبعد أن كان التصوف يمتاز بأنه تصوف نظري صار متغلغلا في أوساط العامة من الناس وانتشر في البلاد، وساهم مساهمة فعالة في حل العديد من المشاكل الاجتماعية فقد استفاد مجتمع تلمسان من رجال التصوف في أمور متعددة منها إعانة المحتاجين ومد يد العون للفقراء والمعوزين، فكثيرا ما كان المتصوفة يتصدقون بمالهم لصالح الفقراء، كما لعب المتصوفة دورا بارزا في تخفيف المشاكل بين الناس عن طريق حلها بممارسة دور الوعي والإرشاد بين الناس، وعملوا على تنقية المجتمع من بعض الشوائب مثل اللصوبية وشجعوا على التعليم، بدليل أن كثيرا منهم كانوا من العلماء، وشجعوا على العمل من خلال امتحانهم أعمالا ليكسبوا بها قوتهم (شقدان، 2002، صفحة 169) فشكّلوا بذلك مثالا لأتباعهم من العامة، وأدوا أدوارا هامة على الصعيد الاجتماعي بسبب الهيمنة الروحية التي كانوا يتمتعون بها داخل مختلف شرائح المجتمع رغم أنهم لم يتولوا أي مناصب أو وظائف لدى السلطة. وتنصب إشكالية هذا البحث حول النقاط التالية:

— هل كان لرجال التصوف دور في معالجة مشاكل المجتمع؟

— ما هي أهم إسهاماتهم الاجتماعية؟

— ما هي الآليات التي استخدمها المتصوفة لأداء هذا الدور الاجتماعي؟

أولاً: العلاج الروحي كبديل للطب العلمي:

أدى انتشار التصوف في أوساط العامة إلى ترسخ بعض الإعتقادات، كان من بينها التداوي من بعض الأمراض التي تستعصي في كثير من الأحيان على الأطباء، فكان الناس يلجأون إلى الأولياء ومن يتوسمون فيهم الخير والصلاح يلتمسون لديهم البركة وإجابة الدعاء والشفاء من الأسقام، فقد كانت هناك فكرة راسخة لدى الناس حول قدرة المتصوفة على شفاء المرضى، لذلك كانوا يقصدونهم لمداواة مرضاهم (حسن علي، 1980، صفحة 478) وقد أثر عن أبي العلاء المديوني (ت735هـ/1334م) أنه كان من المشتهرين بالكشف والرقى لعلاج جميع الأمراض لأولي العاهات (ابن مريم، 1908، صفحة 70)، فكان كل من ألم به مرض أو عاهة يقصده للعلاج، كما أن المتصوفة أدوا أدواراً بالغة الأهمية في المجتمع من بينها تقديم الخدمات الصحية في أوقات الأزمات التي كانت تعصف بالمجتمع، مثل الأوبئة التي كانت تحتاج المغرب الأوسط وتسبب في هلاك الكثير من أفرادها وينجم عنها انتشار الأمراض في المجتمع، ووقوف الأطباء عاجزين أمام الكثير منها مما دفع بالناس للجوء إلى المتصوفة لتلقي العلاج على أيديهم، وقد تعددت أساليب هذا العلاج منها على سبيل المثال التداوي بالرقية القائمة على الأدعية وقراءة بعض السور والآيات القرآنية «فكانت المرأة التي لا تلد يرقى لها في ماء المطر، بعد أن يوضع في إناء جديد وتقرأ عليه الفاتحة وآية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات، وتشربه سبع ليالي متتالية فتحمل» (مزدور، 2008-2009، صفحة 176) فكانت تلك الطريقة ناجعة للعلاج من العقم.

ونظراً لقلة الأطباء خاصة في الأرياف والمناطق المعزولة فإن المتصوفة كانوا يؤدون دور الطبيب المعالج للأمراض عن طريق العديد من الأساليب، فالرقية كانت شائعة في أوساط المجتمع خاصة لدى المرضى الزمنى أو المصابين بالمس والعين والصرع وغيرها من الأمراض التي استعصى علاجها على الأطباء فكان أصحابها يلجأون إلى المتصوفة للمداواة عندهم، فكان أهل بني منجالات من أحواز بجاية يرقون عند الولي علي بن موسى (القرن 9هـ) الذي ذكر أنه رقى لأحد معاصريه وهو الشيخ يحيى العيدلي عكازاً، فصار هذا الأخير يرقى به الناس وتظهر آثار الشفاء عليهم (مزدور، 2008-2009، صفحة 176) كما أنهم كانوا يتفلون في الموضع المصاب من الجسد ويتلون بعض الآيات القرآنية فيتم تماثل المريض

للشفاء، حيث كان التفل من الطرق العلاجية التي كان المتصوفة يستخدمونها (مزدور، 2008-2009، صفحة 176) لذلك كان الناس يعتقدون البركة في ريق الأولياء.

غير أن بعض الباحثين (بوتشيش، 1995، صفحة 146) يرى أن الكرامة هي التي سعت إلى تشويه الطب الديني وصورته عاجزا عن شفاء المرضى، مما دفع بالكثير من أفراد المجتمع إلى اللجوء للمداواة لدى أصحابها من الأولياء وكانوا يشفون منها بسرعة وبدون مقابل مادي ماعدا "الفتوح" (بوتشيش، 1995، صفحة 146) هذا بالإضافة إلى أن الاعتقاد الذي يغلب على المجتمع أن أسباب المرض في عمومها ناتجة إما عن العين والحسد أو فعل الجان، فكانوا يلجأون إلى زيارة أضرحة الأولياء الذين اشتهروا في البلاد بشفاء المرضى وتقريب الصدقات والهدايا والإكثار من الأدعية (بوحجرة، 2014-2015، صفحة 92) للحصول على بركة الولي التي تعد سببا قويا للشفاء.

وساعد على ذلك أمر آخر هو حالة الفقر والعوز التي كان مجتمع المغرب الأوسط يعاني منها في أوقات الأزمات كالجوع والمرض، فقد كان الذهاب إلى طبيب صاحب حرفة يكلفهم مالا هم في أشد الحاجة إليه، بينما حضورهم عند المرباط لا يكلفهم سوى هدية بسيطة يرفضها هذا الأخير تورعا ولا يقبلها إلا بعد إلحاح أهل المريض، مقابل الطلاسم التي يكتبها لهم للوقاية من شر العين والنفاريت، لذلك يتهاافت العامة عليه خاصة النساء لطلب الإنجاب (بعارسية، 2005-2006، صفحة 80) تجنبا للطلاق، أو لمداواة أطفالهن من عاهة أو برص وغيره... لقد ساهم المتصوفة (بغض النظر عن الجانب العقدي للمجتمع) بنصيب كبير في التخفيف عن المجتمع مما كان يعانيه أوقات الشدائد التي كانت تُلجئ العامة إليهم أحياءً والدعاء عند قبورهم أمواتاً.

يظهر من هذا أن دور المتصوفة تجسد من خلال الممارسة العملية داخل المجتمع، لأن منهجهم يحتم عليهم أن يكونوا « أطباء نفسانيين يعملون على شفاء بلايا الآخرين » (حلمي، 2009، صفحة 323) فدورهم كفاعل اجتماعي يكون عن طريق التعامل مع الناس والصبر على إذيتهم وليس باعتزالهم، وقد ساهم الحضور الصوفي في المجتمع في تخفيف حدة ما كان يعانيه الناس من هموم بفضل اختيار المتصوفة « موقع الجمهور لنشر مبادئهم....فالتجرد لله لا يعني اعتزال الخلق » (حلمي، 2009، صفحة 324) وهي طريقة عملية لازدياد كثرة أتباعهم وتوسيع نطاق قاعدتهم.

ثانيا: قيام شخصية الولي برد المظالم وكف العدوان:

كان لانتشار اللصوصية وقطاع الطرق الذين ينشرون الرعب والفرع في البوادي والأرياف أثر سيئ على حركة تنقل الأشخاص والأموال في مجتمع المغرب الأوسط، فقد أشار المنشريسي إلى أن عرب الديلم ورياح وسويد وبني عامر بالمغرب الأوسط قاموا سنة (796هـ/1394م) بقطع الطريق على بعض القوافل ونهبوا ما كانت تحمله من متاع وقتلوا رجالها وسبوا نسائهم، ولم تستطع السلطة أن توقف اعتدائهم فقامت بموادعتهم ومداراتهم بالأعطيات والأنعام (المنشريسي، 1981، صفحة 153) ومما زاد الأمر سوءًا هو الغياب الشبه كلي للسلطة السياسية التي من دورها توفير الحماية للرعية، فقد كانت الدولة في آخر عمرها تعاني من هجمات النصاري على سواحل بلادها، بالإضافة إلى تنافس أمرائها على تولي الحكم الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى التخلي عن شؤون الرعية وإهمال أمرها والاكتفاء بتدبير المؤامرات والاعتياالات للحفاظ على العرش، هذا الوضع دفع بالناس إلى البحث عن بديل شرعي يوفر لهم الأمن ويرد المظالم ويكف عنهم العدوان، فلم يجدوا أحسن من يمثل هذا الدور من شخصية الولي الذي كان يحضى باحترام الناس بإجماع، وذلك لأنه كان يفعل ما تمليه عليه طبيعة تكوينه الروحي، ويساعده على أداء مهمته فعله الكرامي الذي كانت تتناقل أخباره العامة، فيتسابقون إلى التقرب منه وامثال أمره رغبا ورهبا، فنجدهم يلجأون إلى المتصوفة عند تعرضهم لظلم الحاكم، أو لطلب الدعاء والبركة، أو وضع حد لموقف بائس (ألفرد، 1987م، صفحة 391) وتفريخ الكروب وغيرها من المصالح...

حرص المتصوفة على نشر الأمن في مناطقهم ورد المظالم إلى أهلها ومنع العدوان، وقد تكررت النماذج التي كانت تؤدي ذلك الدور في العديد من المواضع في كتب المناقب، فهذا الشيخ محمد بن عمر الهواري (ت843هـ) حينما أخذ بعض الأعراب الطغاة مالا لأحد أصحابه ولم يجد من يدفع عنه ظلمهم، تدخل الشيخ الهواري لرده إليه (الزياني، 2013، صفحة 59) وقد اشتهر الكثير من المتصوفة بمحاربتهم للظلم وكف العدوان مثل ما جاء في وصف الزياني للشيخ محمد بن يقي (القرن 9هـ) بقوله: « قامع أهل الظلال واللصوص » (الزياني، 2013، صفحة 68) وهو وصف يدل على انتشار آفة اللصوصية في المجتمع الزياني كما يشير في الوقت نفسه إلى تصدي المتصوفة لها، ومثال ذلك ما أشار إليه الحسن الوزان بوجود عدد من الجبال في شرق الجزائر التي تسكنها قبائل متحاربة فيما بينها، لدرجة أن أحدا لا يستطيع المرور بأراضيها ما لم يكن مصحوبا بأحد الأولياء (الوزان، 1983، صفحة 46) و في

نص آخر يذكر لنا صاحب دوحة الناشر أن عروج التركي لما دخل تلمسان سنة (923هـ/1517م) وقتل الكثير من المعارضين له وسبى منهم، خاف منه أهل تلمسان و لجأوا إلى الشيخ ابن ملوكة التلمساني الذي دعا على عروج بالموت فصادف أن قتل بعدها؟؟.

و هنا لا بد من الإشارة إلى حضور الفعل الكرامي في كثير من الأحيان لوضع حد للآفات الاجتماعية التي كان الناس يشكون منها ولا يستطيعون لها ردا، فكانت الكرامة تتدخل لوضع حد لها بطرق مختلفة منها أسلوب المكاشفة الذي كان المتصوفة يعتمدون عليه للإطلاع على ما يخفيه الناس من أسرار بهدف تربيته وإصلاحهم، لأنها تبعث على تصحيح النفوس وتطهيرها من الوسواس وتقوي الرغبة في التوبة (بونابي، 2004، صفحة 182) فقد نقل عن الشيخ الولي محمد بن عمر الهواري (ت843هـ) أنه كان « إذا جلس في مجلسه يتكلم عن الخواطر وينحشر الناس إليه، فيكاشفهم بأحوالهم ويطلعهم على خفي أسرارهم وشاع ذلك عنه.... فكان المسافرون وذوو الحاجات يقصدون مجلسه وكلّ قد أضر حاجته في نفسه من سفر أو تزوج أو غير ذلك، ثم يأخذ في الكلام المرسل من غير أن يخاطب به أحدا معينا.... فيقع جواب كل الحاضرين، فينصرف بجوابه وقد عرف وصف حاله الذي سأل عنه في نفسه » (ابن سعد، 2009م، صفحة 44).

كما سعى المتصوفة إلى معالجة مشاكل المجتمع التي كان يتخبط فيها، باعتبار أنفسهم فئة مسؤولة عن ما يحدث داخل مجتمعاتهم، التي يبدو أنها كانت تعاني من تدهور القيم الأخلاقية والدينية، فقد ذكر الونشريسي أن شأبا « تعلقت نفسه بطلب العبادة وخلطة الصالحين، وقلة خلطة أهل الأسواق، لما يرى فيها من الفساد في بياعاتهم ومعاملاتهم، وقلة معاملة من فيه الديانة.... حتى أنهم من كثرة إهمالهم لما يحل ويحرم، ما يعرفون شريعة محمد صلى الله عليه وسلم » (الونشريسي، 1981، صفحة 298) ورغم ما يحمله هذا الوصف من مبالغة فإنه يدل على تدمير الناس من ضعف الوازع الديني في المجتمع ولا يجدون مهريا منه سوى في بيئة المتصوفة، حيث كان هؤلاء يواجهون تلك الميوعة الأخلاقية بالنصح والإرشاد، مثلما كان يفعل الشيخ الهواري مع الأغنياء وأهل الدنيا إذا حضروا مجلسه فإنه يدعوهم إلى الله بالخوف والرجاء، وإذا حضره أهل الصحة والعافية من التجار ذكرهم بواجب الشكر على النعمة، وحضهم على إخراج الزكاة لأنها مطهرة لما لهم، وينهاهم عن معاملة من غلب عليه الحرام، (ابن سعد، 2009م، صفحة 44) وهكذا يمكن القول بأن المتصوفة ساهموا بشكل كبير في الحياة الاجتماعية من خلال التفاف الكثير

من أفراد المجتمع الذين وجدوا فيهم الملاذ الوحيد عندما تواجههم الأزمات، فصاروا بذلك رمزا للأمن والعدالة، كما صارت كراماتهم أداة لإصلاح مجتمعاتهم من الرذيلة وبديلا عن السلطة التي ثبت عجزها في معالجة الظلم.

ثالثا: دور المتصوفة في التكافل الاجتماعي:

من الأمور التي صارت راسخة لدى مجتمع المغرب الأوسط أن رجال التصوف صاروا يمثلون الملاذ الآمن لكل من ألت به ضائقة مادية أو مشكلة إجتماعية، لذلك كانوا يهرعون إليهم آملين قضاء حوائجهم وحل مشاكلهم، فقد كان المتصوفة سباقين إلى مد يد العون للفقراء والمحتاجين من خلال التصديق بأموالهم ومتاعهم والقيام على قضاء حاجاتهم بأنفسهم أو من خلال التوسط لهم عند الحكام، وقد لعب المتصوفة دورا هاما في تخفيف المشاكل بين الناس بممارسة دور إصلاح ذات البين، والتوعية بين الناس وإرشاد وحث الأغنياء منهم على دفع زكاتهم إلى الفقراء منهم وعدم اكتنازها، والإكثار من الصدقات والتحبس على المحتاجين، حتى صار العديد من الأغنياء يتنافسون على تحبس الدور والبساتين على الأماكن التي يرتادها الفقراء وعابري السبيل كالمارستانات والزوايا التي يعينون لها أوقافا خاصة بها للإنفاق عليها وعلى من يقوم بخدمتها، ومنهم من كان يقوم بمنح بعض الهدايا لرجال التصوف من باب التبجيل والاحترام خاصة بهم دون غيرهم، ورغم ذلك يقوم هؤلاء المتصوفة بتفريقها على الفقراء ولا يحتفظون بشيء منها، وقد وردت العديد من الإشارات إلى ما يدعم هذا التوجه خاصة في كتب النوازل منها ما ذكره الونشريسي أن رجلا هاداهم بدار وأصل توت وأوصى أن تكون الدار للذكر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم، وشجرة التوت يأكل منها أهل القرية في البيت بعد الذكر والمدح (الونشريسي، 1981، صفحة 118) كما ثبت عن محمد بن يوسف السنوسي أنه كان يكتب للسلطان في حوائج الناس (ابن مريم، 1908، صفحة 241) رغم أنه كان يكره الكتب للأمراء.

لم تكن العامة وحدها من يلجأ إلى المتصوفة لتفريج كربها، فقد وجدنا الكثير من الحالات التي يستنجد فيها الأمراء بالصلحاء عند اشتداد الأزمات، منها ما أشار إليه التنسي من أن السلطان الزياني أحمد العاقل (866هـ/1462م) كانت له عناية شديدة بالولي الصالح الحسن بن مخلوف وكان يكثر من زيارته (التنسي، 2011، صفحة 254) بل كان يطلب رأيه في أشد الأزمات التي كان يمر بها (ابن مريم، 1908، صفحة 231) وامتد هذا الاحترام والتعظيم إلى أبناء الصلحاء وأحفادهم فكان « السلاطين

والقواد وغيرهم وسائر الظلمة يعظمون أولاد الصالحين والحفائد ويكرمونه» (2008-2009، صفحة 84) رغم ما كان بين السلاطين والأمراء من تباغض وتحاسد إلا أنهم كانوا جميعا يعتبرون الصلحاء رمزا للنجدة وأن حبهم دافع للنقمة، لذلك كانوا يولون عناية خاصة بزوايا المتصوفة والتحبس عليها وإعادة إحيائها» بقصد عمارتها أو القيام بقاصدها أو لمحاكاة ذريته من الوظائف المخزنية، أو المعارم السلطانية» (الونشريسي، 1981، صفحة 171) والنظر في شؤونها وذلك تقديرا للدور الاجتماعي الذي كانت تؤديه، ورغم أن بعض الدراسات (Brunschiwig, 1982, p. 325) قد اعتبرت أن المتصوفة يعتمدون في معاشهم على ما يقدمه لهم الأمراء وأهل الصدقات، ونعتهم بالتواكل وعدم التشجيع على العمل، فإن الإشارات التي ضمتها الكثير من كتب المناقب أثبتت أن أغلب المتصوفة كانوا يمتحنون حرفا متنوعة منها الحياكة والصيد ونسخ الكتب، وتعليم الأولاد الصغار والزراعة وغيرها من الحرف (فتحة، 1999، صفحة 211) وقد أشار الحسن الوزان إلى تواجد بعض المتصوفة الذين «يعيشون على طريقة الزهاد المنقطعين، ويتمتعون باحترام كبير من ملك تلمسان ومن الأعراب، وهم يقدمون الطعام والشراب في غالب الأحيان مجانا وبسماحة إلى كل من مر من هناك» (الوزان، 1983، صفحة 12) مادين يد العون لعابري السبيل وينشرون الأمن ويعيشون من كد أيديهم، مما زاد في مكانتهم بين الناس الذين صاروا يحكمونهم فيما شجر بينهم متحاشين سلطة القضاء في كثير من الأحيان، مثلما جاء في سؤال وجه إلى ابن مرزوق عن مرابطين كانوا إذا وقعت فتنة بين الناس، كان بعضهم يفصل بينهم والبعض الآخر يقف بين الفريقين (2008-2009، صفحة 85) حيث بلغت سلطة المرابطين الروحية على الناس درجة ارتبطت بها حياتهم.

و قد كان للمتصوفة دور آخر في المجتمع تمثل في تعبئة أفرادهم لمهمة الدفاع عن بلاده، وذلك بتقوية روح الجهاد لديهم وشحن همهم، بعد أن كثرت غارات البرتغال والإسبان على سواحل المغرب الأوسط، كما تولى المرابطون مهمة جمع الأموال وتنظيم حركة الجهاد، حيث التجأ العامة إلى رجال التصوف أمثال محمد بن يوسف السنوسي (بوشاقور، 2012-2013، صفحة 52) وعبد الرحمن الثعالبي الذي «دعا أهل مدينة الجزائر وما حولها للجهاد وتوفير أدوات الحرب..... وكذلك حين راسل أهل مدينة بجاية يحثهم على الاستعداد للحرب ومقاتلة الأعداء» (سعد الله، 1998، صفحة 460) ولأن الدولة الزيانية كانت ضعيفة سياسيا، فإن المتصوفة عمدوا إلى إنشاء الرباطات على طول السواحل للاجتماع فيها وتلاوة

القرآن والذكر (الونشريسي، 1981، صفحة 361) بغية إبقاء الجند في حالة يقظة خوفا من مباغته العدو لهم، وقد ضحى الكثير من مريدي التصوف بأنفسهم في الدفاع عن حدود بلادهم ضد موجات الغزو الإسباني، وراح ضحية ذلك العديد من شهداء الصوفية، ورغم ذلك فإن أصحاب الزوايا لم يغلقوا أبوابها أمام جموع الناس الذين يتوافدون عليها للانخراط في صفوف المتطوعة للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

خاتمة:

ساهم المتصوفة في علاج المرضى وذوي العاهات عن طريق الرقى والآيات والأدعية، كما قاموا بتقديم الخدمات الصحية في أوقات الأزمات التي كانت تعصف بالمجتمع خاصة في زمن الأوبئة التي كانت تجتاح المغرب الأوسط، ونظرا لقلة الأطباء خاصة في الأرياف كان المتصوفة يقومون مقام الأطباء لعلاج الأمراض المنتشرة بين أفراد المجتمع، ومن بين الوسائل التي استخدمها المتصوفة نجد الكرامات والكشف، حيث كان الناس ينظرون إلى شخصية الولي بنظرة القداسة، فالولي في نظرهم له مقدرة خارقة على مداواة أمراضهم وشفاء عاهاتهم.

وبسبب الحاجة والفقر التي كان يعاني منها الكثير من أفراد المجتمع الريفي، فإنهم كانوا يلجأون للمتصوفة والصلحاء للعلاج مجانا لأن الذهاب إلى الطبيب كان يكلفهم مالا هم في أشد الحاجة إليه، كما تمثلت مساهمة المتصوفة في رد المظالم وكف العدوان بسبب إنتشار اللصوصية وقطاع الطرق خاصة في البوادي والأرياف، وهو ما أثر على حركة التنقل بين أقاليم الدولة التي كانت سلطتها شبه غائبة في فترات معينة، فكان الولي أحسن من يمثل دور السلطة في رد المظالم إلى أهلها وردع المعتدين عليهم.

ونظرا لتدني القيم الدينية والأخلاقية في المجتمع فقد سعى المتصوفة إلى معالجة هذه الآفة بالنصح والإرشاد، كما لا يمكن إغفال الدور الذي أداه رجال التصوف في مجال التكافل الاجتماعي، فقد كانوا من السابقين لمد يد العون للفقراء والمحتاجين من خلال التصديق بأموالهم الخاصة والقيام على قضاء حوائج الناس بأنفسهم والتوسط للناس عند الحكام، كما كان لهم دور هام في إصلاح ذات البين بممارسة التوعية والإرشاد وحث الأغنياء على التصديق على الفقراء والمحتاجين.

وقد ساهم المتصوفة بدور اجتماعي فعال تمثل في تقديم الطعام لهم، كما اضطلعوا بمهمة جمع التبرعات في أوقات الأزمات والشدة لتفريقها على مستحقيها من الفقراء والمحتاجين.

وفي الأخير وجب على الباحثين سواء في حقل الأنثروبولوجيا أو التاريخ المهتمين بالبحث في تاريخ التصوف في المغرب الأوسط البحث في الأسباب التي أدت إلى مساهمة فئة المتصوفة في الحياة الاجتماعية، وذلك بغية استثمارها في واقعنا الذي نعيشه من أجل بناء مجتمع متماسك، وكذا الاستفادة من تلك التجربة الممتازة التي تركها لنا رجال التصوف في العهد الزياني تجاه مجتمعهم، كي يمكننا الرجوع إليها والحفر في حيثياتها محاولة استغلال طاقاتها وتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي إلى تهميش هاته الفئة الفاعلة في المجتمع.

قائمة المراجع:^ت

1. ابراهيم القادري بوتشيش، الإسلام السري في المغرب العربي، القاهرة، سينا للنشر، ط: 1، 1995م.
2. ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. مر: محمد بن أبي شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية 1908م.
3. أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، ج2، تح: محمد حجي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1981م.
4. ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، تر: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط: 3، 1987م.
5. بركات إسماعيل، دراسة وتحقيق لكتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ليحيى بن موسى المازوني، رسالة ماجستير إشراف: عبد العزيز فيلاي، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 2010/2009م.
6. بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، رسالة ماجستير، إشراف هشام أبو رميلة، فلسطين، جامعة النجاح الوطنية 2002م.
7. بوحجرة عثمان، الطب والمجتمع في الجزائر خلال العهد العثماني، 1519-1830م. رسالة ماجستير، إشراف: دادة محمد، قسم التاريخ والآثار، جامعة أحمد بن بله 1، وهران، 2014-2015م.
8. بوشاقور علي عمر أمينة، الطرق الصوفية والصراع السياسي في المغرب الإسلامي، الملياني أنموذجا، رسالة ماجستير، إشراف: رابح لونيسي، كلية العلوم الاجتماعية وهران، 2012-2013م.
9. الحسن الوزان الفاسي، وصف إفريقيا. ج: 2، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، 1983م.

10. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، عصر المرابطين والموحدين، مصر، مكتبة الخانجي، ط:1، 1980م.
11. سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج:1، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ط:1، 1998م.
12. سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520م) رسالة ماجستير، إشراف: محمد الأمين بلغيث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة 2008-2009م.
13. صباح بعارسية، حركة التصوف في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، بإشراف: عمار بن خروف، جامعة الجزائر، قسم التاريخ 2006/2005م.
14. الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين 12 و13 الميلاديين. عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.
15. محمد بن سعد الأنصاري التلمساني، روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تح: يحي بوعزيز، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع 2009.
16. محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تح: محمود آغا بوعباد، تلمسان، موفم للنشر 2011م.
17. محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ط: 1، الجزائر: 2013م.
18. محمد حلمي عبد الوهاب، ولاية وأولياء السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط، تقديم: رضوان السيد، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط:1، 2009م.
19. محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الاسلامي من ق 6 - 9هـ/12-15م، الدار البيضاء، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 1999م.
20. *Brunschvig(R). Berberie orientale sous les Hafides. 2 vol, paris, 1982, 2.*